باب المراسلة والمناظرة

الشعر المصري الحديث [1]

عنيت مجلة آج نوفو « Age Nouveau » الباريسية في عدد أغسطس سنة ١٩٤٩ بنشر مقال نقدي لطائفة من شعراء مصر المبرزين في العصر الحديث وهم : شوقي وحافظ ومطران وعلي طه وابراهيم ناجي وحسن كامل الصيرفي ، وكاتب هذه السطور كان أقرب الى المؤاخذة منه الى التقدير . فرأيت إنصافاً لأدب وعملاً بقبل إنصاف أدبي أن أدلي بهذا التعليق على ذلك المقال الذي اهتمت مجلة « المقتطف » بنشر تعريبه في عدد شهر نوفمبر سنة ١٩٤٩ ... يقول الكاتب الناقد إن ليس للشعر المصري المعاصر كبير أهمية وينعي عليه أنه لا يزال بعيداً كل البعد عن السيريالزم ويستشهد بقول الأستاذ الدكتور طه حسين (معالي الدكتور طه حسين باشا) إن صورة الشعر العربي الذي يقدمه شعراء مصر الآن لا تبعث على التشجيع ولا تنم عن ثروة من الشعر .

فأما عن مؤاخذة الدكتور طه فمنصبة في الحقيقة على الشعر المائع المتفيهق ، ومقالاته في المؤاخذة يشفع له فيها اخلاصه وغيرته على نهضة وطنه . وأما النقد التحليلي الشامل العميق فمبسوط في كتاب الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث) [2] بسطاً نزيهاً دقيقاً .

والسيريالزم أو السريالية ليست بالبدعة الفنية الحديثة وليست تاجاً للشعر الراقي ولم يخلُ منها الشعر العربي — لا المصري لحسب — المعبّر من الاضطرابات أو المصور لها ، حتى شعر المتنبي في حروب سيف الدولة لم يخلُ منها . ولكاتب هذه السطور نماذج متعددة منها دون تهوّل مبثوثة في تضاعيف شعره ، ويليها مقدمة قصيدته « اسكندرية الدامية » التي نظمت أيام الحرب العالمية الثانية ، وقد صنعت التقابل ما صنعت بعروس البحر المتوسط ، وسن العجب حقاً أن ينتقص قدر الشعر المصري الحديث لأنه لا يعتنق السريالية اعتناقاً أعمى . إن الشعر المصري التقدمي الحديث يعتمد على الطلاقة الفنية وحرية التعبير الوجداني ، مع الترفع عن المحاكاة ، ومع التطلع الى السمو الانساني . إن هذا دعا ومهد نادى أستاذنا خليل مطران في مستهل هذا القرن بل قبل اشراقه . ولئن كان مطران لبنانيّ الأصل فهو مصري الاقامة والتفاعل والتأثير أولاً وأخيراً . وكان لمدرسته الأثر

---

(١) المقتطف : منذ أكثر من عام نشرنا ترجمة مقال ظهر في مجلة « آج نوفو » الفرنسية عن الشعر المصري الحديث . فلما اطلع عليه الاستاذ الدكتور احمد زكي أبو شادي ، أرسل إلينا الفاضل التالي تعليقا على ذلك المقال وعلل المجال دون نشره من قبل .

(٢) المقتطف . مؤلفه الكاتب الكبير الاستاذ عبد اللطيف السحرتي ونشره المقتطف سنة ١٩٤٨

النقدي لشعر داخل مصر وخارجها . وقد ذكر الناقد حافظ ابراهيم الله « يذهب مقلباً الى أبعد حدود التشبيه الشعراء القدامى قبل الاسلام وبعده » . وهذا غير صحيح ، فان اسلوب حافظ الكلاسيكي لم يذهب الى أبعد التوسع في التعبير عن حالاته النفسية ، وفي التعبير عن الصور الشعرية وفي استخدام التلميح البيانى . وحسبنا مثلاً لا يقف متأثراً أمام مرثيته المشهورة في شكوى الزمان التي يقول في مطلعها :

رميتُ الى أن كِدتُ أتلفُ دونها ... وهُدتُ وما أعقبت إلا التَّندُّما
سلامٌ على الدنيا سلامَ مُودِّعٍ ... رأى في ظلام القبر أُنساً ومَغنَما
أضرَّتْ بأبرار الرجال فهام بأحسنها ... وان مدَّت الأخرى فويلاه منهما
فيبسي رفاقٌ أمرَّت نكباءُ واطفأ ... سراجَ حياتي قبل أن يتحطَّما
فما عصمتني من زماني فضائلي ... ولكن رأيتُ الموتَ للحرِّ أعصما

وفي الناقد على كاتب هذه السطور وعلى الدكتور ابراهيم ناجي وعلى حسن كامل الصيرفي قوله « اتناجيهم والله من أني هجرتُ الشعر في سنة ١٩٣٦ واقفاً جهدي على العلم وحده . والحقيقة أن لكل من ناجي والصيرفي الكفاية من الزكاة عن أدبهما وفنهما — وقد صدر أخيراً ديوان (الشروق) للصيرفي ، وصدر أخيراً ديوان (ليالي القاهرة) لناجي . وقيمة الآثار الفنية على أي حال ليست بكثرتها ولا بقلتها . وقد فات ناقدي ان ديواني (عودة الراعي) صدر في سنة ١٩٤٢ وان ديواني (من السماء) قد ظهر أخيراً ، وأن شعراً آخر لي تضمه مجلدان بل أكثر من مجلة (أدبي) التي اوقفها الاضطهاد الفكري في مصر كما يتفاه أخواتها قبلها من قبل . والناقدُ الفاضلُ معذور من أي حال على اعتقاده . ولي عودة لتناول جملة نقاده وملاحظاته بالتعليق . ثم يبقى الشعر العربي في أي عصر مبلغاً أرقى مما وصل اليه الشعر المصري الحديث في جملته — وليست به الوادين ولا من عبدة الأبطال وعلى هذا يضيق أن أضعف من الشعر المصري الحديث ، وجوده وان أحيي مقامه جميعاً وان أقدر الآثار الكلي لطبوعاتهم الفنية دون الاقتصار على آثار واحد ، وان كان إعجابي الأول وبهذه الروح كنت أشعر وأكتب فما صنعت لي الغرض شعلاً لهم وملأى الشعراء وتوثيقاً لأواصر الأخوة الأدبية بينهم .

والشعر المصري الحديث يعبّر كذلك عن النهضة الشعرية في بقية العالم العربي حيث القفى أو كاد النوعُ بالمحاكاة لفحول الشعراء المتقدمين ، وحلَّ الابتداعُ محلَّه كما حلت الطلاقة الفنية ، وصار التساهي الانساني عنصراً هامّاً من عناصر الشعر الحديث .

وليس من شأنهم أن لا احترم الشعر الشعبي ، بل أراني أزري شعر (الأغاني)

او شعر ... اذا كان ذا طابع فني ، أو اني من يقهن مبدأ « الشعر لأجل الشعر » أو أي مذهب آخر من المذاهب الفنية حتى في شعر الشهوة المتدني كقصائد بردلير ، ولكن معناه في ... من الشعر الغنائي المستكمل لأدواته الفنية كمطران وناجيور واقبال بين المحدثين هو الذي ... جنبي النص والمثل العليا من الشاعر المنطوي على نفسه .

... عبد الله من شعراء الشرق ومحرم وحافظ وغيرهم مقطوعاتهم « الاخوانية » كأنما هي ألوان من أدب المراسلة وأبعد مقصدا عن دواوينهم ، مع أنها قد تكون من صميم الشعر الوجداني الرائع . وأذكر على سبيل المثال ما صدّر به مطران الجزء الأول من ديوانه في طبعته الأخيرة من المساجلة الودية — التي جرت بين شوقي ووالدي خلال سنة ١٩٠٤ (أي منذ ستة وثلاثين عاماً) حينما اشتد الضيق بالناشرين في مصر وهم أقلق — بين سياسي واقتصادي ، وقد اشتهرت أبيات شوقي في مجلة (رمسيس) المصرية في الجزء الرابع من المجلد الرابع عشر وأجاب السيد عبد العزيز البشري مع الرد عليها في المجموعة الشعرية التي اختارها من نظم الثاني . ... هذا الشعر له قيمته الفنية والتاريخية ولا يجوز بأي حال امتهانه وإسقاطه ، كما أنه من وجهة أخرى لا يجوز التغالي في إكباره كما كان يصنع السلف . ومهما يكن من شيء فليس الشعر أسلاً في ذاته ، وهيهات أن ينهض الموضوع الرفيع بالنظم الغث الميت فيحيله الى شعر سليم نابض بالحياة .

ولا مشاحة في أن الشعر المصري الحديث — بل الشعر العربي اجمالاً — قد بلغ منزلة رفيعة من النضج الفني تستحق الاعتزاز بها . ولم تنصف مجلة « آبي نوفو » الباريسية بتصدرها الدراسة على سبعة من الشعراء المصريين بينهم كاتب هذه السطور ، فهناك شعراء آخرون كبروز يزدان الشعر المصري الحديث بآثارهم اللامعة . ومع اعترافه الناقدي هو نفسه الآنف الذكر بأن لكل من الشاعرين علي محمود طه ومحمود حسن اسماعيل ثقافة رمزية في شعره فانه عاب عليهما قلة التعمق . ولعله يريد بذلك أن ثقافة كل منهما محدودة وأن ضيق ثقافتها قد حصرها عن الانبساط الفكري والتناول الفلسفي ، ولكن ذلك لم ينقص محمود حسن اسماعيل والتنويه بطاقته الشعرية الجيدة . على الرغم من شاعرية نفسه . كما عاب العقاد على محمود طه بالتنويه بقدرته الرمزية وان تكن اصالته محدودة . ولعله كان متأثراً في نقده بكتاب (في الميزان) للأديب المصري الجهير الدكتور محمد مندور الذي أعلن حرباً شعواء على التقليد الأعمى والتصنع والتحجر ، وكانت له وقفة نبيلة في الدفاع عن الشعر الصادق الأصيل حقاً . وعن بعض شعراء المهجر الأميركي .

وكنت أود في هذا السياق الموجز عن الشعر المصري الحديث أن أتحاشى الاشارة

الى ما خصني به الاستاذ الفاضل في المجلة المتقدمة الذكر قولا أي مطالب بالرد على ملاحظاته . فقد ذكرني في ثلاثة مواضع ذكراً كريماً ولكن المهم فيه لتاريخ الأدبي والنقد الشعر المصري المعاصر هذه الملاحظات الآتية . قال : —

(١) — كان في وسع الشاعر أحمد زكي أبو شادي أن يقتني آثار حكماء العرب في القرون الوسطى — أولئك الذين كانوا يتسمون في وقت واحد بين الفلسفة والعلم ، غير أنه يعد هذه المرحلة بكثير من تربية النحل وتصدره شعراء الطبيعة .

(٢) — أراد أبو شادي أن يجدد الأوزان بادخال قواعد من أوزان الشعر الانكليزي وجاءت النتيجة بين بين — وأخذ أبو شادي يطالع الناس من خلال دواوينه الوفيرة الانتاج بقصائد تبتعد عن الكمال — ربما أن شادي داء فريد الشعر في عام ١٩٣٦ ووقف جهده على العلم .

وعندي أن هذه تهم أبي خدمت الشعر المرسل والشعر الحر بنماذج متعددة ، منها حاولت الجمع بين شطرين فبيتين أو أكثر في القصيدة الواحدة كما في قصيدتي الموجهة الى محمد فريد وجدي بك صاحب (دائرة معارف القرن العشرين) المنشورة في ديواني الموسوم (أنين ورنين) ، ولكن هذه الجهود لاقت مقاومة عنيفة من المحافظين . وكما أستطيع الذكر في الشطر الاول من هذا المقال قد فات الناقد الفاضل الاطلاع على آثاري الشعرية بعد سنة ١٩٣٦ وربما فاته بعضها قبل ذلك ، لأن الملاحظات التي أبداها لا تنطبق عليّ ، وقد كان أدبي الكاسب — لا الخاسر — بقافي المتنوعة . وما لم يكن الشاعر متصنعاً فليس في وسعه أن يمثل الشعر ، فالشعر بضاعة من البضائع تزاول ثم تترك حسب الظروف .

ولا أعرف أنه هناك ما يشرفني أو يشرفه أي شاعر معاصر ، باقتفاء آثار حكماء العرب في القرون الوسطى ، بدل أن أكون مستقلاً بنظراتي وتفكيري وابتكاري الفني . ويظهر أن سفرة المستشرقين الأوروبيين والأميركيين يرون غير رأي الناقد الفاضل في فلسفتي العلمية الفنية المتجلية في كثير من قصائدي ، مثيلات « أقصى الشعور » و « الضياعة » و « الطارد » و « باكون » و « تحطيم الذرة » والأخيرة كأنها لمحة عصرية وقد طبعت في ديواني (الكائن الثاني) الصادر في بداية سنة ١٩٣٥ .

هذه إلمامة « عامة » أكتفي بها اتساقاً للمقدمة التقديمية التي أنتسب إليها . وليس جهدي المتواضع إلا قطرة من المجموع الشامل والبحر الزاخر الذي أسهم فيه العديدون من أساتذتي وزملائي في مدى نصف قرن ، متجاورين مع أندادهم النوابغ في الأقطار العربية الأخرى وفي طليعتها لبنان وسوريا والعراق .

أحمد زكي أبو شادي

نيويورك